# دراســـــــات

# معوقات الداخل العربي في التواصل مع الآخر الغربي: وُجهــة نظــر عربيــة

صالح سليمان عبد العظيم

أستاذ مساعد، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،

جامعة الإمارات العربية المتحدة.

## مقدمــة

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أصبح العرب في وضع لا يُحسدون عليه، سواء من خلال الهجمة العسكرية الغربية، الأمريكية بالأساس، على بلادهم، أو من خلال تلك الهجمة الإعلامية والأكاديمية البحثية الغربية عليهم، والتي تم تنميطهم من خلالها بوصفهم دعاة حرب وإرهاب وكراهية، وبأنهم لا يفهمون سوى لغة العنف ومرادفاتها من قتل وتدمير وتفجير. بل إن هذه الهجمة قد طالت أيضاً معتقداتهم ودينهم، بحيث وصلت إلى مستويات بالغة العدائية ضد العرب والمسلمين. وهو الأمر الذي أدى بالولايات المتحدة الأمريكية إلى التدخل المباشر لدى العديد من الدول العربية لتغيير المناهج التعليمية، وإغلاق العديد من المدارس الدينية التي لا تتوافق والسياسة الأمريكية في المنطقة، بالإضافة إلى تصاعد أشكال العداء الصريح الموجّه ضد المسلمين في الغرب، وبشكلٍ خاص هؤلاء المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومما لا شك فيه أن تلك الصورة التي رسمها الغرب كصيغة للتعامل مع العالم الإسلامي بعامة، وللتعامل مع العرب على وجه الخصوص، قد أثرت في طبيعة التعامل في ما بينهما. فالصورة العدائية التي رسمها الغرب للعرب وللمسلمين، قد قابلتها في الوقت نفسه صورة أخرى عدائية رسمها العرب والمسلمون للغرب بشكلٍ عام، وللولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص. وفي ما بين العداء والعداء المضاد ضاعت فرص عديدة وممكنة للتواصل بين الطرفين، وزادت حدة المسافة وبعدت في ما بينهما.

وعلى رغم وجود العديد من الكتابات على الناحيتين التي حاولت أن تبرهن من خلال وجهة نظرها على طبيعة عدوانية الصورة التي يرسمها كل طرف عن الطرف الآخر، فإن الكتابات التي حاولت أن تكشف عن طبيعة المشكلات التي يواجهها الطرف الخاص بها، والتي تعوق عملية التواصل مع الآخر، قد اتسمت بالقلة، إن لم تكن بالندرة. وبالطبع ينبع ذلك من متطلبات هذه النوعية من الكتابات التي تستدعي درجة كبيرة من التجرد الأيديولوجي، والحيدة العلمية، والتفسيرات الموضوعية، وهو ما يصعب

وجوده في سياق ذلك النزال الحادث الآن بين المعسكر الغربي والمعسكر العربي الإسلامي.

وتحاول الدراسة الراهنة من خلال رؤية تدّعي ذلك التجرد الأيديولوجي، والحيدة العلمية، والتفسير الموضوعي، على رغم كل الصعوبات الملازمة لذلك، أن تقف على المعوقات الكامنة في الجانب العربي والتي تعوق التواصل مع الآخر الغربي، وإقامة علاقات وُدية معه. وترتبط هذه الرؤية بجانب تحليلي يرى أن هذه المعوقات ترتبط بتاريخ العلاقات مع الآخر الغربي منذ منتصف القرن التاسع عشر، وبالصراع العربي ـ الإسرائيلي منذ منتصف القرن العشرين وحتى الآن، وبملابسات الصراع العقائدي بين الإسلام والمسيحية. كما أن هذه الرؤية ترتبط بجانب تحليلي آخر محدود المدى، وبالغ التأثير في الوقت نفسه، يتعلق بواقع البنية العربية المعاصرة الأكثر تخلفاً على المستوى العلمي والتكنولوجي والحضاري، وانسحاب تلك المواضعات إلى النظر إلى الآخر الغربي الأكثر تقدماً وهيمنةً ونفوذاً.

إن الجمع بين هذين المستويين التحليليين سوف يساعد لا محالة على الوقوف عند المعوقات الداخلية العربية المعاصرة التي تقف حجر عثرة في التعامل مع الآخر الغربي. وميزة هذه الرؤية، أنها وإن كانت تضع في اعتبارها السياقات العالمية الكبرى للمواجهات الحادثة بين الغرب والعالم العربي الإسلامي، فإنها لا تتغافل عن التأثيرات الداخلية الكامنة في بنية العالم العربي الإسلامي، والتي تعوق تواصل الحوار مع الآخر الغربي. فالجمع بين هذين المستويين التحليليين يساعد بدرجة كبيرة على الوقوف عند العوائق البنيوية والتاريخية التي أعاقت الحوار الغربي ـ العربي الإسلامي، وما زالت تعوقه حتى الآن.

## أولاً: نشأة خطابات المواجهة والتصعيد

يتميز عالمنا المعاصر، في ضوء الهيمنة المطلقة للإعلام على كافة أمور ومجريات الحياة، بالقدرة الهائلة على نقل الصراعات والتعارضات بين الدول والمجتمعات البشرية من مستواها السياسي المحدود إلى مستوياتها الفكرية والأيديولوجية الدعائية الأوسع والأكثر تشابكاً وتعقيداً. فأجهزة الإعلام المعاصرة تؤدي دوراً كبيراً في إذكاء حدة الصراعات بين الدول، ودفعها إلى مستويات جديدة وخطيرة غير مسبوقة. ونحن نقصد بأجهزة الإعلام هنا ليس فقط الصحف والمجلات والقنوات الفضائية المختلفة، لكننا نقصد بها أيضاً الجامعات، ومراكز البحوث العلمية المختلفة، ومراكز استطلاعات الرأى العام التي انتقلت في الكثير من دول العالم من المستوى العلمي الرصين إلى المستوى الأيديولوجي الدعائي والإعلامي. كل هذه المؤسسات المختلفة، سواء أكانت حكومية أم خاصة، تؤدي دوراً كبيراً في تصعيد مستويات الصراع بين الدول والتكتلات الإقليمية المختلفة، إضافة إلى نقل هذا الصراع من مستوى الصراع السياسي المحدود، إلى مستوى الصراعات الفكرية والأيديولوجية والثقافية والحضارية المنفلتة والمتشعبة المشارب والتوجهات.

وحينما تختلط مستويات الصراع بمثل هذا الشكل، يتحول الصراع في ما بين الدول والتجمعات الإقليمية المختلفة إلى صراع وجود، وتنشأ تلك المفاهيم العنيفة والعدائية، والتي تحصر حدود التفاهم في ما بين البشر في صيغة «نحن» و«هم». أما ما هو مشترك بين هؤلاء النحن، وهؤلاء الهُم، فيتم تجاهله تماماً، حيث يصبح تأجيج الخلافات وتصعيدها هو الهدف الذي يمكن من خلاله تحقيق الأهداف السياسية غير المعلنة. فوراء كل تصعيد أهداف سياسية معينة، حتى ولو بدت هذه الأهداف في الخلفية من كل أشكال التصعيد المختلفة. والخطورة في هذا التصعيد ذي الجوهر السياسي، أنه يكتسب بعد ذلك سمات وملامح خطيرة تُعقِّد من امكانية التوصل إلى حلول متوازنة تبتعد عن المواجهات المباشرة، وإطالة أمد الصراع.

إن الانتقال من حالة العداء السياسي إلى العداء الفكري والتنميط الأيديولوجي لا يتم بين عشية وضحاها، فمن خلال حالة التأجيج التي تتم من خلال العديد من المؤسسات الحكومية والخاصة، يتم تكريس العداء والكراهية بشكلٍ يحتاج إلى فترات طويلة للتخفيف من حدتهما، ناهيك بالتخلص منهما. إن عملية العداء الفكري والتنميط الأيديولوجي تتم بعناية مدروسة، وبشكلٍ يومي ومتواصل، ينقلها من الحيز البشري المحدود لصناع القرار إلى الفضاء الاجتماعي العام، حيث الجماهير العامة، المنفلتة التوجهات والمشاعر. هذه الوضعية الخطيرة تنقل الصراع من محدوديته السياسية التي يمكن مناقشتها والتفاهم حولها، إلى حيز الانفلات الجماهيري والشعبي الذي يصعب التعامل معه ومع اندفاعاته وتحولاته المختلفة. وربما يفسر ذلك العديد من الصراعات العرقية والدينية المنفلتة في أماكن كثيرة من العالم، بحيث يندهش المرء لمستويات العنف والكراهية المصاحبة لتلك الأحداث والممارسات والصراعات. وتوسيع دائرة الصراعات بمثل هذا الشكل يُنتج الخطابات العدائية المختلفة التي تُطيل أمد الصراعات وتساعد على تأجيجها بما يؤدي إلى صعوبة التفاهم وإيجاد صيغ حوارية جديدة.

إن العديد من الصراعات القائمة في عالمنا المعاصر، سواء أكانت داخل البلد الواحد، أو بين التكتلات الإقليمية المختلفة، أو بين الحضارات العالمية المختلفة، قد تشكلت من خلال نقل الصراعات من الحيز السياسي المحدود إلى الفضاء الاجتماعي الفكري الأيديولوجي الأوسع نطاقاً.

ولا يختلف العداء الخطابي الحالي بين الغرب والعرب عن هذا السياق الذي حددناه سابقاً. فالعلاقات التاريخية بين الغرب والمسلمين بعامة، وبين الغرب والعرب بخاصة، قد تحدّدت من خلال الإطار الاستعماري منذ منتصف القرن التاسع عشر. ونحن لن نعود تاريخيا إلى عصور المواجهات المباشرة في القرون الوسطى، حيث الحروب الصليبية، والعداءات العسكرية الدامية شبه المتكافئة بين الطرفين، لكننا نرى أن منتصف القرن التاسع عشر، يشكل نقطة مواجهة جديدة بين الغرب الاستعماري الغازي والعالم الإسلامي

والعربي الخاضع لتلك الممارسات السياسية العدوانية. فمنذ منتصف القرن التاسع عشر سعى الغرب الأوروبي إلى الهيمنة على العالم بأكمله، ومن بينه الوطن العربي. وطوال عقود طويلة تالية شكل هذا الاحتلال الفضاء المعرفي الذي تشكلت من خلاله الخطابات العدوانية التي أطلقها كل طرف ضد الطرف الآخر.

وعلى رغم عدائية الخطابات العربية إلا أنها تشكلت في ضوء تلك الممارسات الدموية الغربية، والتي لا يمكن إلا أن تنتج هذه النوعية العدائية من الخطابات الموجهة ضد الغرب الاستعماري في ذلك الوقت. فالممارسات الدموية الغربية قد أدت بالوطن العربي إلى مقاومة هذا المستعمر الغربي الغاصب، سواء من خلال المقاومة العسكرية المسلحة، أو من خلال إنتاج كافة أشكال الخطابات العدائية الموجهة ضده. فلم يكن من الممكن إنتاج أية وسائل حوارية بين الغرب والوطن العربي في ذلك الوقت، في ظل القبضة المُهيمنة للمستعمر الغربي، وفي ظل الاستعلاء المطلق من جانب الطرف الأول على حساب الطرف الثاني.

وفي ما بعد حصول معظم الدول العربية على الاستقلال منذ منتصف القرن العشرين، كان من الممكن انتهاج صيغ جديدة للتواصل في ما بين الغرب والعرب، إلا أن زرع إسرائيل في المنطقة بشكلٍ قسري وعنيف ومضاد للتركيبة التاريخية لسكان المنطقة بعامة، ولطبيعة الفلسطينيين بخاصة، قد خلق شكلاً جديداً من أشكال المواجهات الخطابية العدائية، تفردت فيه الولايات المتحدة الأمريكية بالدفاع السافر عن إسرائيل وحمايتها ضد العرب. وعلى رغم بعض التوجهات السياسية الرسمية في المنطقة نحو التعامل مع أمريكا والتواصل معها، فإن التوجهات الفكرية والأيديولوجية العامة كانت وما زالت ضد هذا التوجه بشكلٍ عام. فقد ظلت فلسطين هي الحلقة الجديدة التي تشكلت من خلالها أوجه العلاقات المختلفة بين الغرب والعرب. فإذا كانت الخطابات العدائية العربية السابقة قد تشكلت في إطار القبضة الاستعمارية منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، فإن خطابات حقبة ما بعد الاستقلال قد تشكلت في إطار النشأة الإسرائيلية العدوانية، وابتلاع دولة فلسطين، والمساندة الأمريكية الواسعة المدى والمجانية للدولة العبرية.

وفي ما يلي سوف نحاول أن نرصد الجوانب المختلفة التي أعاقت التواصل مع الآخر الغربي الأوروبي والأمريكي، مُركزين بشكلٍ كبير على العوائق الداخلية المرتبطة بالوطن العربي ذاته، والتحولات التاريخية المختلفة التي شهدها. وهنا يجب الاحتراز بداية بالقول بصعوبة الفصل الحاد بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية التي أعاقت إمكانيات التواصل بين الطرفين، كما أن هذا الفصل الحالي في ما بينهما هو فقط من أجل التحليل الذي يحاول أن يلقي الضوء، من وجهة نظر تدّعي الحيادية، على الدور العربي في خلق تلك العوائق المختلفة للتواصل مع الآخر الغربي.

# ثانياً: المعوقات الداخلية للتواصل العربي مع الآخر الغربي

على رغم صعوبة الفصل بين تأثيرات العوامل الداخلية والخارجية بالنظر إلى العلاقات العربية ـ الغربية، فإننا سنحاول هنا، لأغراض التحليل، قصر النقاش على العوامل الداخلية. ومرة أخرى، هناك محطات ونقاط مواجهة بين الغرب والوطن العربي، ربما تبدأ بالمساعدات الأمريكية الهائلة لإسرائيل، مروراً بأحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، واحتلال العراق عام ٢٠٠٣، حتى إعدام صدام حسين عام ٢٠٠٧. وفي كل هذه المواجهات كان للغرب اليد العليا، والقدرة على اتخاذ القرار، وتحريك القوات، والتدخل السافر في المنطقة. من هنا لا يمكننا أن نفصل بدرجة أو بأخرى بين المعوقات الداخلية للتواصل مع الآخر الغربي، الأوروبي والأمريكي، والمعوقات الخارجية المتمثلة في تلك الهيمنة الغربية السافرة على المنطقة. وفي ما يلي سنعرض لطبيعة هذه العوائق العربية الداخلية التي أضعفت من التواصل بين الطرفين.

## ١ ـ التخلف الحضاري العربي الإسلامي المعاصر

تؤدي الفجوة الحضارية والتكنولوجية بين العالم الغربي من ناحية، والعالم العربي الإسلامي من ناحية أخرى، دوراً كبيراً في الإحساس العربي بذلك الخوف من الغرب، والرغبة في مقاطعته ومواجهته. وإذا كان هناك جانب كبير من العداء العربي للغرب، وعدم التواصل معه، ينبع من عدوانية الغرب تجاه العرب والإسلام، فإن هناك جانباً آخر ينبع من ذلك الإحساس بالتدهور العربي الإسلامي على المستويات الحضارية المختلفة كافة.

وتخلق حالة التخلف العربي الإسلامي المعاصر ازدواجية حادة في التوجه نحو الغرب؛ فالبعض يُحمل الغرب مسؤولية تردي الأوضاع في الوطن العربي، ولا يرى الغرب إلا بوصفه منبع الشرور والآثام، بينما يرى البعض الآخر أننا نحن السبب في ما آلت إليه أوضاعنا المتخلفة، وأن الحل الوحيد يكمن في ضرورة توجهنا المطلق نحو الغرب، والنهل من ثقافته وحضارته وتقدمه. فالبعض يعادي الغرب بشكلٍ مطلق، بينما يتيه به البعض الآخر وبحضارته وتقدمه.

يؤدي التخلف الحضاري العربي الإسلامي المعاصر دوراً كبيراً في خلق ذلك الحاجز النفسي الذي يعوق التواصل مع الآخر الغربي، خصوصاً في ظل الاستعلاء الذي أصاب البعض من العرب والمسلمين الآن تجاه الآخرين، وجعلهم يتمركزون حول أنفسهم، ولا يرون سوى ذواتهم وحضارتهم الماضية، وبأنهم الأحق بقيادة العالمين. وهذه الحالة تنجم إما عن توجه نفسي مُسبق يرفض الآخر الغربي، ويرفض التعامل معه، وإما عن جهل معرفي بحقيقة وضعية القوى العالمية، ووضعية العرب والمسلمين فيها. وفي كلتا الحالتين، هناك حكم مُسبق، وجهل بأحوال العالم، وتحولاته الراهنة، وغطرسة مُفرطة في تضخيم الذات، والتقليل من شأن الآخر الغربي. وهذه الحالة كثيراً ما تُصيب الأمم التي تستشعر أهميتها، الماضية

بالأساس، في السياق الكوني، من دون أن تستند إلى آليات حقيقية وفعلية آنية تتيح لها أن تمارس أدوارها الكونية بفاعلية وتأثير حقيقيين.

وتتفاوت ردود أفعال الأمم تجاه هذه الحالة، فالبعض منها يتفهم حقيقة التغيرات العالمية، ويعي طبيعة تغير المكانات بين الحضارات المختلفة، ويحاول أن يساهم بقدر ما يستطيع ضمن المنظومة الحضارية الكونية، بحيث يعظم من المكاسب ويقلل من الخسائر قدر الإمكان، بينما يتقوقع البعض الآخر حول الماضي العظيم، ويتكلس في مواجهة القوى الكونية المختلفة، ويصبّ جام غضبه عليها، وتتمثل انجازاته في تعظيم انسحابه من المحيط الكوني، وتفريغ عنفه وأحقاده على الآخرين. واللافت للنظر هنا، أن هذه النوعية الأخيرة كلما اعتقدت أنها تحقق انسحابها من المحيط الكوني، ازداد تغلغلها في هذا المحيط، وازدادت عملية الاستغلال الكوني من قبل القوى المتنفذة لها. وهذه الحالة تنطبق بدرجة كبيرة على الواقع العربي المعاصر الأكثر تخلفاً والأكثر تعرضاً لمظاهر التبعية والاستغلال كافة من القوى الغربية المعاصرة.

ولا يؤدي الكثير من النخب العربية المثقفة هنا الدور المطلوب منها في خلق فهم حقيقي لوضعية القوى الغربية المعاصرة، بل إنها تستفيد من هذا الصراع المتصاعد، في تأجيج المشاعر الشعبية، بحيث يبدو الغرب في النهاية مجرد تكتل شيطاني واحد ومتجانس، هدفه الرئيس هو نفى الآخر العربي برمته. وفي هذا السياق، تضيع الفروق المختلفة بين القوى الغربية المختلفة، ويتم التعامل مع الغرب كما لو كان كتلة واحدة صماء غير خاضعة للتبدل والتحول. كما أن هذه الحالة تحيل الصراعات السياسية الحقيقية بيننا وبين الغرب إلى صراعات فكرية وأيديولوجية عقيمة، تبعدنا عن الفهم الحقيقي والموضوعي لحقيقة قوة الغرب، ولحقيقة توجهاته نحو العالم بشكلٍ عام، ونحونا بشكلٍ خاص.

وتستحيل مواجهة الغرب إلى حيلة وأداة يستخدمها الكثير من النخب الفكرية، والأحزاب السياسية، لمواجهة السلطات الحاكمة في الوطن العربي، وبشكلٍ خاص تلك المتواطئة مع العالم الغربي. وهنا تضحى مواجهة الغرب، الساحة التي تتصارع من خلالها النخب الفكرية العربية والأحزاب السياسية المختلفة. وبديلاً من الفهم الموضوعي للغرب، يتحول الغرب بفعل هذه الصراعات السياسية والأيديولوجيات المتعارضة إلى ساحة من المواجهات المُغرضة، التي يحاول من خلالها كل طرف تحقيق مكاسبه على حساب الطرف الآخر.

وإذا كان هذا هو حال النخب الفكرية والسياسية تجاه الغرب وتجاه الطرق المختلفة للتعامل معه، فلنا أن نتخيل حال الجماهير الشعبية التي تلتف حول هذه النخب من ناحية، ووراء الأحزاب السياسية المختلفة من ناحية أخرى. فالجماهير المنقادة وراء النخب التي تدعو ليل نهار إلى هزيمة الغرب، والعودة إلى أنماط مثالية ماضوية، لا يمكن تغيير قناعاتها السلبية المختلفة التي كونتها تجاه الغرب، وتجاه خطورته على العقيدة الإسلامية والقيم والأخلاق العربية. ولا يمكن في هذا السياق، تجاهل الدور الذي يؤديه الكثير من

الأحزاب ذات الطابع الديني، في الترويج لصور مُختلقة عن الغرب، سواء أكانت أحزاباً إسلامية تدعو إلى نبذ الغرب والمواجهة معه، أو قوى دينية مسيحية أو أقليات أخرى تبالغ في تقديرها الغرب، من واقع احتياجها إلى تأمين وجودها ضمن المنطقة العربية. وفي كل الأحوال، فإن كل فريق يرى في الغرب ما يفيده، وما يتلاقي مع مصالحه الحالية أو المستقبلية، بحيث يضيع في النهاية الفهم الواعي والحقيقي للغرب.

## ٢ ـ الالتفاف حول الإسلام

يرتبط بما سبق، ولا ينفصل عنه، ذلك الربط بين الغرب ومشروعاته التبشيرية المناهضة للإسلام والمسلمين. وعلى رغم صحة هذا الربط إلى حدٍّ كبير، فإنه قد ولد نوعاً من الخوف تجاه كل ما يمتّ بصلة إلى أي مشروعات غربية في المنطقة. وهنا تنشأ إحدى معوقات التعامل مع الغرب، وهى مخاطر التعميم، والتعامل مع الغرب ككتلة واحدة من دون أي اختلافات بين عناصرها. وإذا كان المرء لا يمكنه أن ينكر سعى الكنيسة الغربية إلى التبشير في مناطق كثيرة من العالم، بما فيها الوطن العربي، إلا أن هناك الكثير من المؤسسات الغربية تساهم في تنمية الكثير من المناطق الفقيرة في العالم، من دون أن ترتبط مساعيها بنشر المسيحية، وتحويل المسلمين عن دينهم. كما أن المسلمين أنفسهم مسموح لهم بالدعوة الحسنة للإسلام في معظم، إن لم يكن في كل، الدول الغربية، واضعين في الاعتبار الفرق بين ضخامة وهيمنة القوى الغربية التي تستند إليها الكنيسة في تبشيرها، والضعف الحالي للإسلام والقوى المساندة له.

إن مخاطر هذا الالتفاف الصارم حول الرؤى الدينية، تكمن في أنه يمنع التواصل مع الآخر الغربي، ويؤدي إلى منع التواصل الإنساني على مشاربه وتوجهاته كافة، بل إنه يمكن القول هنا بأن هذا الالتفاف الصارم يحرم العرب أنفسهم من فهم طبيعة المشاريع الغربية في المنطقة، وفهم عادات وقيم وأفكار الإنسان الغربي المعاصر.

إضافة إلى ذلك، فإن التمركز حول الإسلام، لا يؤدي سوى إلى رؤية الآخر من منظور أخلاقي واحد ومحدّد، وهو منظور رؤية العربي المسلم لذاته. ويمكن القول هنا بأن الكثير من ممارسات الآخر الغربي يتم تقييمها من وجهة نظر أخلاقية دينية، وهو تقييم صارم، لأنه يفترض أن يتصرف الآخرون مثلنا، ويتشبهون بنا، وبأنماطنا الحياتية السلوكية. وللأسف الشديد، فإن هذا هو السلوك نفسه الذي يتعامل به الكثير من القوى الغربية المهيمنة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية تجاه العرب والمسلمين، وبشكلٍ خاص بعد أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، حيث تصبح معادلة الفعل ورد الفعل هى المهيمنة على قاعدة التواصل العربي ــ الغربي المعاصر.

إن المركزية الإسلامية مثلها في ذلك مثل المركزية الغربية المسيحية لا ترى العالم إلا من منظور عقائدها وثقافاتها الإسلامية المحددة. وهذه المركزيات الجامدة، سواء على الجانب العربي أو على الجانب الغربي، لا تتيح أي قدر من التواصل والحوار. إن التمركز حول الذات، وبشكلٍ خاص حول العقائد الدينية، يجعل من المستحيل إجراء أي حوارات

هادفة. ومن غير المتوقع في ظل هذا الالتفاف حول العقائد أن يقبل أي طرف مقولات وأفكار الطرف الآخر، حيث يتحول النقاش الفكري والثقافي إلى تناطح وصراع بين المقدسات النقية الخالية من أي شوائب إنسانية.

إن العيب هنا، ليس في الارتباط بالإسلام، والدفاع عنه، فمسألة العقيدة مسألة حياتية بالنسبة إلى العرب المسلمين في المنطقة، كما أنها كذلك بالنسبة إلى الغرب المسيحي، لكن العيب يتمثل في النظر إلى الآخرين، الغرب بالأساس، في ضوء النظرة الإسلامية، والحكم عليهم من خلال هذه النظرة. وهذه النظرة تدعم من المركزية الإسلامية التي لا ترى سوى غيرها، كما أنها أيضاً تُضعف من إمكانية فهم الآخر، وإمكانية الاستفادة من خبراته العلمية والتكنولوجية والحضارية، مثلما فعل المسلمون الأوائل مع غيرهم من الحضارات الأخرى اليونانية والفارسية التي جاورتهم، وكانت أكثر تقدماً منهم. يمكن للعرب الالتفاف حول الإسلام، والارتباط به، والدفاع عنه، مع الانفتاح على الآخرين، وتقبل عاداتهم وتقاليدهم، مع عدم الحكم عليهم من منظور أخلاقي ضيق، وضرورة الاستفادة من الأفكار والمنتجات الحضارية الغربية وتطبيقاتها المختلفة لخدمة الواقع العربي الأكثر تخلفاً، والأكثر اعتماداً على استيراد كل ما ينتجه الآخرون، بمن فيهم الغرب.

## ٣ ـ التمترس بالهويات الجامدة

من المسائل المهمة التي يصعب غضّ الطرف عنها عند تناول التعامل مع الآخر الغربي مسألة الهوية والدفاع عنها. إن الهوية تبرز بوصفها ذلك الكائن الضخم غير المتعين الذي يفرض نفسه أمام أي محاولة للحوار مع الآخر الغربي. وهي تنتقل من كونها حالة معبّرة عن الواقع العربي المعاصر، ومرتبطة به، إلى حالة مقدسة تعطل من مسيرة هذا الحوار، بحيث تلقي في مساراته الكثير من العقبات والعوائق.

والهوية حينما تنتقل من مستواها الحضاري المتفاعل مع الآخرين إلى مستواها المقدس المتمركز حول الذات، والمترفع عن الاشتباك مع الحضارات والثقافات الأخرى، تؤدي لا محالة إلى الجمود والتكلس والتخلف قياساً لتقدم الحضارات والثقافات الأخرى. فالعربي المعاصر يتمترس بالهوية، حتى وهو لا يدرك عناصرها ومكوناتها اللازمة والضرورية لوجودها كعامل تحصين ضد التوغل والهيمنة الغربية. وكلما زادت وطأة التخلف الحضاري والإحساس بالهيمنة الغربية، زادت حمى اللجوء إلى الهوية والتمسك بها، من دون أن نعرف عن أية هوية نتحدث، وما هى موجبات التمسك بها.

واللافت للنظر هنا كثرة الكتابات العربية التي تتناول مسألة الهوية العربية، مع ما يرتبط بذلك من ضرورات الدفاع عنها، والحفاظ عليها. كما يلاحظ أن كتابات الهوية على الطريقة العربية تتم من خلال مواجهة الآخر الغربي، ومقاومة مشروعاته المهيمنة على المنطقة. وعلى رغم أهمية هذه الكتابات من حيث البحث عن آليات مختلفة يمكن من خلالها الحفاظ على الهوية العربية، وصيانتها، فإنها تتسم في أحيان كثيرة بالتصلب

والالتفاف حول الذات والداخل العربي، أكثر من الانفتاح على غيرها من الحضارات والهويات الأخرى. إضافة إلى ذلك، فإنها تتسم في أحيان كثيرة بالدعائية والديماغوجية التي تضرّ أكثر مما تفيد، والتي تثير المشاعر والعواطف والانفعالات من دون أن تقدم أي فهم حقيقي وجاد وموضوعي للهوية العربية وعناصرها ومكوّناتها المختلفة.

والهوية العربية تشتمل على العديد من العناصر التي يجب تفعيلها من أجل تنشيطها والاستفادة منها. إن الذين يتحدثون عن الهوية العربية في مواجهة الآخر الغربي ينسون أو يتناسون أن أحد أركان الهوية العربية المعاصرة، وهو اللغة، يتعرض لضربات هائلة، ليس فقط من خلال الآخر الغربي، ولكن منا نحن العرب الذين أهملنا اللغة العربية، وانكببنا على لغات العالم الأخرى. هنا تصبح مسألة الحديث عن الهوية مجرد خطاب دعائي أيديولوجي، يستخدمه من يستخدمه من أجل تحقيق مآرب سياسية، ومصالح خاصة ضيقة. كيف يمكن التواصل مع الآخر الغربي، ومع الحضارة الغربية، والاستفادة من منتجاتها ومعارفها المختلفة، ونحن مقبلون على لغة الغرب بلا سند لغوي يخصنا؟

قد تبدو المقاربة هنا مفارقة ومثيرة للاستغراب، من حيث احتياجنا إلى لغة الآخر من أجل التواصل معه، والاستفادة منه. لكن هذه المفارقة تتوارى حينما نعلم أننا نحتاج إلى لغة الآخر للتواصل معه، لكننا نحتاج إلى لغتنا في الوقت نفسه من أجل تطورنا وتدعيم هويتنا بشكل علمي وحقيقي. إن مسألة اللغة هنا لا تنبثق عن رغبة في الاستعلاء على الآخرين، لكنها تؤسس لحوار ينشد المساواة مع الآخر الغربي، حوار يبدو فيه وجود اللغة تعبيراً عن سياقات حضارية مختلفة، تبغي الحوار والتفاهم، لكنها تسعى في الوقت ذاته لتفعيل آلياتها الخاصة بها.

كما أن الإسلام ذاته يمثل عنصراً مهماً وحيوياً للهوية العربية، بل يمكن القول بأنه من أهم عناصر تشكيل هذه الهوية وتفعيلها، لكنه يجب أن يكون ذلك الإسلام المنفتح على العالم، القادر على التفاعل مع الآخرين مثلما فعل المسلمون الأوائل. أما أن يتحول الإسلام، مثلما يريد له البعض الآن، إلى مجموعة من الأوامر والنواهي، وأن يُستخدم كأداة لتكفير الآخرين، والاستعلاء عليهم، فهذا يحيله إلى أداة قمع، وليس أداة تحضر ورقي وتقدم.

ولا بد من أن يضع سؤال الهوية في اعتباره قدراً ما من المرونة يراعي تلك الهجمة الشرسة من جانب العولمة ضد كل أمم الأرض، بما فيها تلك الأمم القوية حضارياً، مثل فرنسا التي تشتكي من هجمة المنتجات الأمريكية المختلفة على الشعب الفرنسي المعاصر. إن هذا لا يعني أن نستسلم للعولمة وآلياتها تماماً، لكنه يعني أن نفهم هذه الآليات، بدرجة أو بأخرى، بحيث يمكننا أن نعظم من جوانبها الإيجابية، ونحجم من جوانبها السلبية بقدر ما نستطيع. ومسألة التعامل مع العولمة، ومدى تأثيراتها في الهوية، تحتاج إلى حلول إبداعية، فبقدر ما تتوخى الحفاظ على خصوصيات الهوية العربية، يجب أن تتمتع بدرجة عالية من المرونة في التعامل مع العولمة وآلياتها المختلفة.

إن سؤال الهوية هو في التحليل النهائي سؤال ملتبس ومتشابك، يحملنا إليه قسوة الواقع العربي المعاصر، وقسوة الآخر الغربي تجاه المنطقة. فالواقع العربي في بحثه عن تلك الهوية مدفوع بواقع الأزمة الراهنة، وعلى رغم ما تثيره الأزمة من ابتكارات وحلول جديدة ورائعة، فإنها أيضاً قد تدفع صوب الحلول السريعة العابرة والعبثية في الوقت نفسه، التي تؤدي في النهاية إلى المزيد من الانغلاق، ورفض التعامل مع الآخرين، والاستفادة من خبراتهم.

## ٤ ـ التنميطات المسبقة الواحدية الرؤية

من القضايا المهمة المرتبطة بالحوار مع الآخر الغربي ذلك الموقف المُسبق من الحضارة الغربية، والمرتبط بتنميطها. إن العربي لا يرى الحضارة الغربية إلا من منظور كونها تلك الحضارة المادية التي لا تهدف إلى شيء سوى إلى تسليع كل مظاهر الحياة، بما فيها قيم المجتمعات الأخرى، وتحويلها إلى مجرد منتج جديد يضاف إلى ماكينة الإنتاج المادي الغربي. إن هذه النظرة، الصحيحة إلى حد بعيد في ما يختص بالحضارة الغربية المعاصرة، تنسحب بدرجة كبيرة على عموم كل ما يختص بالغرب. ويعوق هذا التصور النمطي أي فرصة للتواصل الحقيقي مع القيم الغربية، والبشر الغربيين.

وفي ضوء التأثيرات المختلفة لأجهزة الإعلام العربية ينسحب هذا التصور إلى عموم المواطن الغربي الذي يتم تنميطه في صورة ذلك الإنسان المادي الأناني الذي لا يهمه سوى إشباع غرائزه المادية المختلفة، كما تصبح المرأة الغربية هى المرأة العارية التي ليس لها من هم سوى الجنس والعُري. ومن مفارقات عملية التنميط هذه أنها موجودة أيضاً لدى الآخر الغربي، حيث يتم تصوير الإنسان العربي على أنه ذلك الإنسان الهمجي البربري المحب للمال والنساء، الشغوف بالقتل والإرهاب وترويع الآخرين، وتقييد حرية المرأة واستعبادها. وهي نظرة نمطية غير صحيحة على كلا الطرفين من حيث إنها لا تفترض النسبية، وتتسم بالتعميمية المفرطة المخالفة للمواضعات والتفسيرات المجتمعية والإنسانية الواقعية.

ومن الضروري القول هنا إنه إذا كان هذا التنميط يتم في الجانب العربي بدرجة عفوية وشعبوية وربما ديماغوجية إلى حد كبير، فإنه يتم في الجانب الغربي بدرجة ممنهجة ومقصودة تدّعي العلمية والحيادية والبراءة، تقودها في ذلك شبكة ضخمة مترامية الأطراف من أجهزة الإعلام الغربية المختلفة، إضافة إلى العديد من المراكز البحثية المختلفة. وتنميط الآخر ليس بعيداً عن العقلية الغربية، والأمريكية منها بالأساس، حيث يمكن الإشارة هنا إلى ممارسات الإعلام الأمريكية تجاه الأمريكيين السود، والمهاجرين من أمريكا اللاتينية.

ومن اللافت للنظر هنا أن هذا التنميط العربي للحضارة الغربية وللإنسان الغربي، يقابله تنميط آخر يقوم به بعض العرب من أبناء الأقليات العربية يماثل تلك الصورة النمطية التي يقوم بها الغرب للوطن العربي. لقد خلقت الحالة العربية المهترئة، وتلك

الهجمة الغربية الشرسة على العالم العربي والإسلامي، استقواء بعض أبناء الأقليات في وطننا العربي بالحماية الأمريكية السافرة، إذ ردّدوا التنميطات الغربية نفسها عن الإنسان العربي، عبر العديد من مواقع الإنترنت، وعبر العديد من المؤتمرات التي يقيمونها في رحاب الآخر الغربي. ويمنحنا مثال الليبراليين الجدد في وطننا العربي المعاصر مثالاً حيا لتلك التنميطات المبتذلة التي يتماثل من خلالها بعض العرب المعاصرين مع التنميطات الغربية للوطن العربي.

وعملية التنميط بالغة الخطورة من حيث إنها لا ترتبط بالعابر السريع الذي يمكن تغييره، لكنها ترتبط بتنميط العقول وقولبتها، وتحديد مسار التوجهات والانطباعات عن الآخرين. وهي عملية معقدة تساهم فيها المؤسسات المجتمعية كافة، بدءاً من مؤسسة الأسرة، مروراً بالمدرسة، وحتى باقي المؤسسات المجتمعية الأخرى، وعلى رأسها المؤسسات الإعلامية. لذلك، فإن عملية تغيير هذه الصورة النمطية تحتاج إلى أوقات طويلة تتم من خلال التعليم ومن خلال الثقة المتبادلة لطرفي عملية التنميط.

## ٥ ـ الاقتصار على الجهود النخبوية المحدودة وعدم توسيع دائرة التواصل

من أبرز ملامح العلاقة بين الغرب والوطن العربي أنها تتم من خلال مجال نخبوي ضيق تقوده مجموعة من المثقفين المعدودين، بحيث يشكلون مجريات ومسارات هذه العلاقة إما بالإيجاب أو بالسلب. وتَوَقُّف حدود التعامل بين الغرب والوطن العربي على نخب فكرية محدودة يضاعف من عوائق التواصل في ما بينهما، كما أنه لا يمنح هذا التواصل آفاقاً جديدة رحبة وواسعة من التعامل والتفاعل في ما بينهما. وخطورة هذه المحدودية أنها تفرض على العلاقات بين الغرب والوطن العربي تصورات محدودة منحازة في توجهاتها عن مجريات الأمور في الطرفين كليهما، من حيث هيمنة هذه النخب المثقفة على المؤسسات البحثية، وعلى المؤسسات الإعلامية المختلفة.

وفي المجتمعات العربية، مثلما هو الحال في المجتمعات الغربية، تصيغ مجموعة محدودة من هذه النخب، عبر وجودها الدائم في أجهزة الإعلام المختلفة، وعبر مؤلفاتها وصلاتها بمؤسسات صنع القرار، شكل العلاقة والتواصل بين الغرب والوطن العربي. ومن اللافت للنظر هنا أنه كثيراً ما يتم حجب الكثير من المثقفين، وبشكلٍ خاص هؤلاء المعارضين لوجهات النظر الرسمية، عن الظهور عبر أجهزة الإعلام المختلفة، والتعبير عن آرائهم ورؤيتهم لطبيعة العلاقات بين الغرب والوطن العربي.

وفي آليات الحوار بين الغرب والوطن العربي، يجب ألا يقف هذا الحوار عند تلك النخب المتعلمة المثقفة من المفكرين، ويجب ألا يقف أيضاً عند تلك البروتوكولات الرسمية التي تتم بين السياسيين والرسميين، لكنها يجب أن تتعدى ذلك إلى حيث الشعوب والبشر ومؤسسات المجتمع المدني. ينجح الحوار، أو حتى يكتسب ذلك القدر من المصداقية والاستمرارية، إذا ما انطوى على ذلك القدر من الحضور الشعبي، وإذا ما ارتبط بتغيير

وجهات نظر الشعوب بعضها عن بعض، وإذا ما ارتبط أيضاً بدرجة كبيرة من الاحترام والتقدير والكرامة. ومن دون إحساس طرف ما من أطراف الصراع بكرامته لا ينجح الحوار، ولا تجد الحضارات لنفسها متسعاً لدى كل طرف من أطراف الصراع أو حتى الحوار.

وما يحاول أن يقوم به بعض دعاة التحضر والانفتاح على الآخر في وطننا العربي من تقديم صورة مشرقة وبراقة للآخر الغربي لا تعكس حقيقة الممارسات العدائية الغربية تجاهنا، لن يلقى أي قدر من النجاح والقبول الشعبيين. إن رجل الشارع العربي الذي يتعرض ليل نهار لموجات عديدة من الإعلام العربي والغربي على السواء، يستطيع أن يلمس بنفسه مدى التحقير الذي يمارسه الغرب ضد العالم العربي والإسلامي. من هنا، فإنه من الضروري أن تقوم المؤسسات المدنية غير الحكومية على الجانبين كليهما بأدوار واسعة المدى من أجل تدعيم الاحترام المتبادل بين الطرفين، بما يوسع من دائرة القبول الشعبي.

ويجب على مؤسسات المجتمع المدني، وبشكلٍ خاص تلك الخاصة بالمجتمعات الغربية التي تدّعي التفوق والرقي، أن تؤدي دوراً كبيراً يخرج بها من الانغلاق المؤسساتي إلى حيث التوجه الشعبي العريض. وهذا التوجه الشعبي العريض هو الذي يتيح لتلك المؤسسات التحرر من قهر أيديولوجياتها وأفكارها الضيقة إلى حيث عموم البشر العاديين الذين يمكن من خلالهم تغيير الحضارة والتاريخ والكون. إن التواصل بين مؤسسات المجتمع المدني على الطرفين كليهما، وبشكلٍ خاص تلك المؤمنة بأهمية التواصل والتفاعل الحقيقي بين الغرب والوطن العربي، يمكن أن يقود مؤسسات المجتمع المدني في الوطن العربي إلى التمسك بالتعريف الحقيقي البناء في الغرب، وهو الدور نفسه الذي يجب أن تؤديه مؤسسات المجتمع المدني الغربية.

وفي هذا السياق، لا بد من الإشارة إلى أهمية أجهزة الإعلام المختلفة على الطرفين الغربي والعربي كليهما. فإذا كنا نُحمل أجهزة الإعلام أدواراً سلبية كثيرة مثل تعميق الكراهية والتنميط السلبي بين الطرفين كليهما، فإن هذه الأجهزة ذاتها يمكنها أن تؤدي أدواراً هائلة في الاتجاه المعاكس من حيث نشر صيغ جديدة للتفاهم، والتركيز على نقاط الاتفاق والمشتركات الإنسانية المختلفة التي تشكل ركائز جيدة للحوار والتفاعل في ما بين الطرفين. إن حجم الانتشار الهائل للقنوات الفضائية العربية الذي وصل إلى مستويات غير مسبوقة، يستطيع أن يؤدي دوراً توضيحيا لوضعية الغرب بشكلٍ جيد وحقيقي وموضوعي قدر الإمكان. إن المواطن العربي العادي يحتاج إلى فهم الماهية الحقيقية للغرب، ويحتاج إلى أن يُقدَّم له الغرب كما يعيشه المواطنون الغربيون بلا زيادة ولا نقصان، ومن دون تلك الجرعات الأيديولوجية الهائلة التي تقدم الغرب من خلال ما يراه القائمون على الإعلام العربي، ومن خلال تحيزاتهم ومصالحهم السياسية المسبقة.

## ٦ ـ الوقوف عند الخلاف في الصراعي وتجاهل المشتركات الإنسانية

إن من أهم معوقات التواصل بين البشر عامة، وبين الغرب والعالم العربي الإسلامي بشكلٍ خاص، هو الوقوف عند عناصر الاختلاف وموجبات الصراع أكثر من الوقوف عند عناصر الاتفاق وموجبات الحوار. وعلى ما يبدو فإن الطبائع البشرية مولعة بالوقوف عند عناصر الاختلاف وتجاهل عناصر الإتفاق؛ فالتركيز على عناصر الاختلاف يُبرز عناصر التفوق، والإحساس بالهيمنة على الطرف الآخر. فحينما يركز الغرب على وضعية المرأة في الوطن العربي، فإنه ينتقص من مجتمعاتنا العربية الدكتاتورية، إذ ينتقل من هذا المستوى إلى المستوى الديني، ليلصق ذلك بالإسلام والقواعد الخاصة به. وحينما يركز الوطن العربي على وضعية المرأة الغربية، فإنه ينتقص من وضعيتها وتسليعها الجسدي، لينتقل من ذلك إلى تجريم الغرب المسيحي الذي يفتقد أية قيم أخلاقية، ويعيش من أجل الإشباعات الحسية المباشرة. وهذه الوضعية، تقود إلى عدم رؤية أي من الطرفين سوى نفسه، وسوى ممارساته، بوصفها الوصفة السحرية التي يجب على المجتمعات البشرية كافة اتباعها ومراعاتها والالتزام بها.

وفي مسألة صراع الحضارات، أو حتى عند البدء في إجراء حوار الحضارات، يقف الجميع شرقاً وغرباً عند الخلاف المتباين أكثر من المشترك المتماثل. ويتجاهل الطرفان تلك المساحات المشتركة بين العالمين التي يمكن التوقف عندها، والعمل من خلالها على تعميق دائرة الحوار بديلاً من الصراع. والسؤال المهم الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا تصرّ الحضارات المختلفة على الوقوف عند الخلاف وتتجاهل في الوقت نفسه المشترك في ما بينها؟ ألا تستطيع الحضارات المختلفة التواصل من خلال المشتركات الإنسانية؟ أم أن طبيعة التطور الحضاري لا تتم إلا من خلال الصراعات العدائية والبحث عما هو خلافي لتعظيمه، والارتكان إليه من أجل التقدم، وكنس الآخر المخالف في التوجهات والمشارب والتطلعات؟

يرتكز الوطن العربي، كما الحال في العالم الغربي، على نقاط الاختلاف والجوانب الصراعية أكثر مما هو متاح من جوانب الاتفاق والمشتركات الإنسانية العامة. وتزداد حدة التركيز على نقاط الاختلاف وجوانب الصراع بسبب طول أمد الصراعات الحقيقية الملموسة بين الطرفين. فطوال ما يقرب من القرنين من الزمان، والعلاقات بين الغرب والوطن العربي تنتقل من صراع إلى صراع آخر، ومن مواجهة إلى مواجهة أخرى. ويؤدي طول أمد الصراع دوراً كبيراً في التركيز على الاختلافات وتجاهل العناصر المشتركة بين الطرفين، وهذا شأن كل الصراعات البشرية في كل مكان وكل زمان.

إن من الأهمية بمكان هنا تركيز الجانب العربي، كما يجب أن يفعل الجانب الغربي، على عناصر الالتقاء والاتفاق التي يمكن تفعيلها بوصفها منطلقات جيدة ومهمة لبدء الحوار الغربي ـ العربي المعاصر بأسس وركائز جديدة. إن هناك جوانب كثيرة

يمكن البدء بها لإجراء الحوار مع الآخر الغربي، مثل التفاعل الثقافي والفكري والأدبي والعلمي. وفي هذا السياق، يجب عدم البدء بالحوار الديني، والخلافات العقائدية المختلفة، والتي تضرّ في هذه المرحلة من توهج الصراعات بين الغرب والعالم العربي والإسلامي على السواء. إن أية محاولة للحوار، أو حتى للصدام، لا بد من أن تعي أن الشعوب والثقافات مختلفة في الأساس، اختلاف الجغرافيا، واختلاف التاريخ، واختلاف الهويات، واختلاف القيم، واختلاف اللغات واللهجات، واختلاف العادات والتقاليد، وأخيراً اختلاف الأديان. وإذا كان البشر يختلفون في ما بينهم في كل هذه الجوانب، أليس من المنطقي والطبيعي، على رغم وجود المشتركات الإنسانية في ما بينهم، أن يختلفوا في حضاراتهم وثقافاتهم وتوجهاتهم.

من الضروري عدم تركيز التفاعل بين الغرب والعالم العربي والإسلامي على ما يثير الصراعات، ويؤجج حدة الكراهية بين الطرفين، على رغم الصعوبات التي ترتبط بذلك. وعلى ما يبدو، فإن كل موضوعات الحوار بين الغرب والوطن العربي تصبّ في النهاية في تأجيج الصراعات والعداوات المختلفة. ومن هنا، فإنه يمكن القول بأن المسألة رهن في أحيان كثيرة بالنيات الحسنة بين الطرفين، كما أنها رهن بإيجاد حلول جذرية للكثير من الصراعات الدامية المفتوحة بين الغرب والوطن العربي، وعلى رأسها الممارسات النازية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين. فطالما استمرت إسرائيل في ممارساتها النازية الدموية ضد الفلسطينيين، فإنه يصعب أن توجد أرضية صلبة وحقيقية للحوار الغربي ـ العربي. وإلى أن يتم ذلك، يجب على الطرفين ألا يتوقفا عن إيجاد وسائل جديدة وفعالة للحوار البناء في ما بينهما ■